المنهج العلمي عند ابن خلدون قواعده مصادره معالمه

أ/ وشنان حكيمة
أ/منصوري سميرة
جامعة سكيكدة

المقدمــة:

إذا ذكر ابن خلدون، ذكر معه الاهتمام بالنقد التاريخي، والبعد عن علم ما بعد الطبيعة، والتحرر من قيود الفلسفة المشائية، فأثبت بذلك أنه رائد مـن رواد علـم الاجتماع الحديث بعدما توصل إلى أن حوادث التاريخ إنما تعلـل بطبـائع العمـران وأحواله.

هذا التعليل، يجمع حسبه، بين أمرين، الأول تمحيص الأخبار والثاني تعليـل الوقائع، وهذا ما أحدث انقلابا في عالم المعرفة في عصر ابن خلدون. هذا الانقـلاب تجسد في منهجه أو نسقه المعرفي المتكامل الذي وضعه، بعدما انتقد من سبقه مـن مؤرخين، فوضع له قواعدا محددة، وصبغه بمعالم واضحة معتمدا في كل ذلك علـى مصادر محددة.

ولكي نوضح معالم المنهج الخلدوني، فإننا سنتناول العناصر التالية:

1 - النقد التاريخي لابن خلدون.

2 - قواعد المنهج الخلدوني.

3 - معالم المنهج الخلدوني.

4 - مصادر المنهج الخلدوني.

1 ـ النقد التاريخي لابن خلدون:([1])

و يشتمل على البحث في علم التاريخ، ومغالط المؤرخين وحاجة المؤرخ إلى علم العمران.

أ.**علم التاريخ**: إن حقيقة التاريخ عند ابن خلدون " أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش، التأنس ،العصبيات،و أصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من أحوال".

نفهم من هذا أن موضوع التاريخ عند" ابن خلدون" واسع جدا، حيث أنه لا يحصره في أخبار الدول، الملك والملوك، الوقائع، الحروب ... وإنما يتسع لكل ما يطرأ على الحياة الاجتماعية من تغير في مؤسساتها وأوضاعها، كالتغيرات الاقتصادية والثقافية وغيرها. وكأن المقصود من هذا أن التاريخ عنده، تاريخ الحضارة لا التاريخ السياسي وحده، فجعل بذلك موضوع التاريخ موضوعا شاملا يتعدى حدود التاريخ المحض ليطول مسائل الفلسفة الاجتماعية ويحيط بها، أو مساءل علم الاجتماع العام .

و إذا كان التاريخ من الفنون التي يشغف بها الخواص والعوام، إلا أن الفرق في طبيعة هذا الشغف، حيث أن مفهوم التاريخ عند العوام يعني ظواهر الأخبار، أما عند الخواص فهو ضرورة إدراك بواطن الأخبار، يقول ابن خلدون:" إن التاريخ فن تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقبال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره، لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمق فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات

ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق".

نفهم من هذا أن التاريخ، قبل ابن خلدون كان جامعا لأخبار وحوادث الزمان فكيف كانت وصارت عليه أحوال الأنام حيث اهتم المؤرخون بظاهره وأغفلوا باطنه، ففهموه على أنه أخبارا تروى لتطرف بها الأندية وقصص يتداولها الناس دون النظر فيها وتفسيرها فجاء منهجهم روائيا لا تحليليا، وتأريخا لحياة الملوك لا دراسة لأحوال العمران " إن الاعتماد على التخيل دون التحقيق والذاتية دون الموضوعية والتشيع لفريق دون آخر والأخذ بالآراء المرتجلة والقبلية دون تسليط النقد عليها وعدم رد الوقائع التاريخية إلى مصادرها وعدم التحري في البحث للوصول إلى الحقيقة من خلال المنطق والعقل والاستدلال السليم والشك في صحة ما يرد من أخبار، هذا كله ما اتسم به المنهج التاريخي قبل ابن خلدون".

إذا كان الغرض الأسمى من علم التاريخ، إذن هو معرفة بواطن الأمور، كان من الواجب على المؤرخ العمل على اجتناب المغالط وأن يجمع في منهجه بين تمحيص الأخبار وتعليل الوقائع.

ب.مغالط المؤرخين: كثيرا ما يقع المؤرخون في المغالط لأسباب عدة: نفسية، اجتماعية، أو لجهلهم بقوانين الطبيعة وأحوال العمران، لذلك وجب على المؤرخ تمحيص الأخبار لتمييز الحق من الباطل والصدق من الكذب فيها والسبيل إلى ذلك، معرفة الأسباب الداعية إلى الكذب.

و من هذه الأسباب نجد:

* **التشيع للآراء والمذاهب** : فالنفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه، أما إذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع

غطاء على عين بصيرتها، يحول بينها وبين الانتقاء والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله.

* **الثقة بالناقلين**: قد يكون الراوي كاذبا فإذا وثق المرء به نقل كذبه إلى غيره، بغير قصد والسبيل إلى اجتناب هذا هو التعديل والتجريح، أي نقد عدالة الرواة وأمانتهم في القول وسلامتهم من الكذب.

* **الذهول عن المقاصد**: كثير من المؤرخين الناقلين للأخبار، لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، فينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب، ومعنى ذلك أن الناقل قد يكون صادقا في نقله، ويكون مع ذلك مخطئا في فهمه، فإذا نقل الخبر كما عاين وسمع، وهو ذاهل عن المقاصد وقع في الخطأ وهو يظن أنه صادق .

* **توهم الصدق**: ويأتي هذا التوهم في الغالب من جهة الثقة بالناقلين، ويقصد ابن خلدون هنا، عدم الثقة بالناقلين وإن كثر عددهم وتواترت رواياتهم.

* **الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع**: نظرا لما تحمله من غموض والتباس وتصنع، فينقلها المخبر كما رآها.

* **تقرب الناس لأصحاب المراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر**: فينسبون إليهم من الأعمال والمآثر ما ليس لهم، فيفيضوا في الإخبار لها على غير حقيقة ذلك أن النفس مولعة بحب الثناء، ولعل هذا ما يظهر في مبالغة المؤرخين في وصف مآثرهم وإرضاء لهم وتقربا إليهم.

* **الجهل بطبائع الأحوال في العمران**: ذلك أن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع أو الناقل عارفا بطبيعة الحوادث والأحوال في الوجود والمقتضيات، تمكن من تمحيص الخبر وتمييز الصدق من الكذب والسبيل إلى ذلك هو العلم بطبائع الأحوال في العمران والإلمام بالعلوم الطبيعية وقوانينها.

* **ولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان**: أي الميل إلى المبالغة في نقل الأخبار وعدم تصور معاني الألفاظ ومفاهيم الأعداد تصورا واضحا.

* **قياس الماضي على الحاضر قياسا مطلقا**: لا شك أن بين الماضي والحاضر تشابها والماضي كما يقول ابن خلدون " أشبه بالآتي من الماء بالماء " غير أن قياس الماضي على الحاضر قياسا مطلقا لا يخلو من الخطأ، لان أحوال الأمم والعالم لا تدوم على وتيرة واحدة لذلك فعلى المؤرخ عند المماثلة بين الماضي والحاضر، أن يبحث عما بينهما من الاتفاق والخلاف لتجنب الوقوع في الغلط والوهم.

وأخيرا، فإذا أردنا أن نلخص أسباب الوقوع في الغلط والوهم نستطيع تقسيمها إلى قسمين: أغلاط قصدية وأغلاط لا قصدية، أما الأولى فتشير إلى الأخبار الكاذبة، يضعها الدساسون لترويج مذهب أو نشر دعوة، أو توفير منفعة أو اصطناع أمر.

أما الثانية، فهي الأخبار المخالفة للواقع والمنقولة عن حسن نية إما لجهل أو قلة فهم أو عدم تدقيق أو ميل للمبالغة، أو ولوع بالغرائب أو استرسال في قياس الماضي على الحاضر، قياسا مطلقا.

وقد تجتمع الأغلاط القصدية واللاقصدية في خبر واحد مثل نقل الخبر عن مخبر ملفق للثقة بناقله أو عجز عن تمحيص.

ج ـ **حاجة المؤرخ إلى علم العمران في تمحيص الأخبار وتعليل الوقائع**: ذلك أن علم العمران يعصم من قبول الأخبار الزائفة المخالفة لقوانين الحياة الاجتماعية فابن خلدون يحدد موضوع التاريخ بالعمران البشري أو الاجتماع الإنساني، بمعنى أن المجتمع ونشأته وقوانينه وتبدله إنما هو موضوع التاريخ، فينظر من خلال هذا التحديد إلى المجتمع نظرة كلية تقوم على أن السلوك الإنساني تحكمه قوانين تتولد عن تطور العمران البشري، فالتاريخ البشري، فعالية حية، تجتمع في مجاله وقائع الماضي والحاضر في نطاق ترابط سببي، وطردي واستقراء علمي، يجعل وقائع

العمران البشري ترتبط بعضها من خلال القوانين الاستقرائية وتشكل نسقا علميا متكاملا، لذلك فالتاريخ لا يفسر بصورة ذرائعية أو قدرية وإنما هو فعالية إنسانية حية وصراع دائم يتأثر بمعطيات مختلفة يجب النظر إليها عند تفسير وقائعه.

2 ـ **قواعد المنهج العلمي الخلدوني:**(2)

يعد المنهج طريقة وأصول التفكير المنطقية التي يسلكها الباحث في دراسته للظاهرة موضوع البحث لغرض الوصول إلى الحقيقة وطرقة ابن خلدون في الدراسة "طريقة تعتمد على دراسة القوانين التي يخضع لها المجتمع وعلى المقارنة بين أنواع المجتمعات ومختلف الشعوب". تستند في خلفيتها المعرفية إلى الحضارة الإسلامية وزمانها.

فما هي قواعد هذه الطريقة؟.

القاعدة الأولى:

وهي قاعدة النقد الباطني السلبي، وتقوم على التحري من مصدر الأخبار وطرق التثبت من صدق المؤلف ومن عدم انخداعه ووقوعه في الخطأ والغلط، فعوامل الانخداع والوقوع في الخطأ كثيرة ومتعددة كالكذب من أجل مكسب ذاتي، أو الميل إلى فئة أو طبقة لمناصرتها، أو إرضاء للحكام، وفي هذا ابتعاد عن الموضوعية.

كما أن الاعتماد على المصادر الثانوية ينتج معلومات مشوهة بعكس الاعتماد على المصادر الأصلية.

القاعدة الثانية:

وتتمثل في الابتعاد عن التشيع والتعصب للآراء والأحكام المرتجلة والقبلية والتزام جانب الموضوعية في عرض وقائع العمران، وفي هذا مماثلة لما جاء به دوركايم في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع حينما قال انه يتعين على عالم الاجتماع، الابتعاد عن كل رأي مسبق حول الظاهرة.

وإذا كانت الموضوعية نقيض الذاتية، فإنها في التاريخ لا تتأتى إلا بالبحث في قوانين تطور العمران البشري أو المجتمع الإنساني وهي قوانين موضوعية ناجمة عن تطور العمران البشري ذاته.

القاعدة الثالثة:

وهي موسوعية المعرفة عند المؤرخ، إذ يتعين عليه الإلمام بقواعد السياسة وطبائع العمران والملك وتاريخ الأمم والاقتصاد في كل الأزمان المختلفة، ولما كان الاجتماع الإنساني يؤثر في الوقائع التاريخية والاجتماعية فلا بد للباحث من الإحاطة بطبائعه، كي يدرك أثره في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي هذا يقول ابن خلدون "فهو التاريخ محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط".

القاعدة الرابعة:

وتتمثل في التشكك في الأخبار التي ترد إلى أسماع المؤرخ، فلكي يبني المؤرخ منهجه المعرفي على أساس متين، يتعين عليه أن يشك في صدق المعلومات التي حصلها ما دام الشك فيها له ما يبرره.

فمن خلال الشك والتبصر يصل المؤرخ إلى الحقائق الخالية من الريبة، العقل ميزان الحقيقة وما الشك إلا بداية التأمل العقلي، فهو اختبار أولي للقضايا والظواهر، والمسائل لا تكون جديرة بالبحث إلا إذا صمدت أمام الاختبار العقلي.

القاعدة الخامسة:

وهي المعرفة العقلية التي توصل إلى المعرفة العلمية وتقطع الشك باليقين، باعتبارها أحد المصادر الأساسية للمعرفة، فينظر في الأخبار ولا يؤخذ إلا بما يقبله العقل.

القاعدة السادسة:

وتتمثل في مسألة العلية فابن خلدون يرى أن لكل حادث محدث فالمنهج الخلدوني حسب هذه القاعدة يقوم على تحليل الحوادث التاريخية ومعرفة عللها، فثمة إذن علاقة تلازم في الحدوث (سبب نتيجة).

القاعدة السابعة:

وتتعلق بالعمران البشري واعتباره المدخل المنهجي والإطار المعرفي الذي يتم في ضوئه الوصول إلى القوانين العامة للاجتماع الإنساني.

كانت هذه هي أهم قواعد المنهج العلمي عند ابن خلدون فما هي مصادره؟

3 ـ مصادر المنهج الخلدوني:[3]

الأكيد أن منهج ابن خلدون، كان حصاد التراث المعرفي الاسلامي، لكنه مع ذلك شكل ثورة في تاريخ فلسفة المعرفة، كونه عرض إشكالية المعرفة بوجه نقدي تجريبي.

ويمكن اختزال أهم مصادر المعرفة الخلدونية كالآتي:

أ.القرآن الكريم:

لقد سلك ابن خلدون مسلكا جديدا في تفسيره للمعرفة، لم يكن مألوفا لدى سلفه، فجاءت فلسفته المعرفية خلاصة ثقافته الفكرية الاسلامية وتجاربه وخبراته لا سيما ثقافته القرآنية.

فالقرآن الكريم بقصصه عن حياة المجتمعات الغابرة واندثارها ودورتها التاريخية كان مصدر إلهام ابن خلدون فهو يحث الإنسان على اصطناع منهج العلم القائم على النظر في الكون بالقياس والاستقراء، بقصد الوصول إلى المعرفة، والتاريخ لون من ألوان المعرفة وأعرقها، ورواية الأخبار عن الشعوب والأمم واستقراء تاريخها إنما ترمي إلى الاعتبار بها، نتلمس هذا في عدة سور مثل ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾

(الحشر، الآية 02) وكذا ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ (الأعراف، الآية 185).

ب. الحديث الشريف:

شكلت طرق النظر في الأحاديث وتمييز صحيحها من موضوعها أو التحديات المعرفية الأساسية للمسلمين، وفتحت باب المناقشة والجدال في أساليب المعرفة وأشكالها على مصرعيه. فقد عمل المسلمون على تأصيل العلوم وما يعنينا هنا هو تأثير هذه القواعد الخاصة بالحديث في المنهج الخلدوني حيث اشترط ابن خلدون في المؤرخ الصدق، اعتماد اللفظ دون المعنى، تسمية المنقول عنه، أن يكون عارف بحال صاحب الترجمة علما ودينا وغيرهما، وأن لا يغلبه الهوى وأن يكون حسن التصور والعلم، وعالما بمدلولات الألفاظ.

وكل هذه الشروط اعتمدها ابن خلدون في المقدمة عندما وضع قواعد البحث التاريخي.

ج. علم الكلام والفلسفة:

بصفة عامة، لقد أخذ ابن خلدون بالمنهج العقلي الإسلامي، حيث أن القرآن الكريم يلجأ إلى البرهان العلمي ومنه أخذ النقليون والعقليون من الفلاسفة، وطبقوا في دراساتهم مناهج الاستدلال العقلي والنقلي، وأخذوا بمناهج الاستقراء والاستنباط، وقياس الغائب على الشاهد، فهم لم يختلفوا حول المناهج وإنما حول المقاصد، فالمتكلمون قصدوا الدفاع عن الإسلام بأدلتهم النقلية بينما حاول الفلاسفة دراسة الفلسفة وتجريدها عن الدين، أو البرهان على ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. والتوافق بين المعقول والمنقول.

وفي مقدمة ابن خلدون يتضح أنه يصر على أن المهمة المطروحة هي فحص الماضي لاستخلاص العبر والدروس.

د. تجارب ابن خلدون وخبراته:

إضافة إلى التراث المعرفي الإسلامي، فإن تجارب ابن خلدون وخبراته تشكل أيضا إطارا مرجعيا لمنهجه.

فحياته وتقلبه في خدمة الحكام وتعرفه عن كثب إلى مجريات الأمور، وخفايا القصور وأسباب النزاعات بين القبائل، قد عمقت نظرته المعرفية وجعلته يعيد النظر في المناهج السابقة، ولا يسلم إلا بما يقبله الواقع والمنطق الحسي.

وهو بهذا قد كرس المعرفة التجريبية، أي المعرفة التي يكتسبها الإنسان بالتجربة بالخصوص التجربة الاجتماعية وما اهتمام ابن خلدون بالتجربة إلا لأنه معني من جهة بالمسائل الاجتماعية والتاريخية وحدها وهي ميدان العقل التجريبي، كما أنه لا يؤمن من جهة أخرى بقدرة العقل النظري على تصور الوجود كله على ما هو عليه، لأن ذلك من ميدان ما وراء الحس وهو ميدان لا ترقى إليه المعرفة البشرية العقلية.

4 ـ معالم المنهج الخلدوني:([4]) يمكن تقديمها كالآتي:

*** النزعة العقلية:**

إن العقل والتجربة هما دليلا ابن خلدون الذي يقول أن "العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوءة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال".

*** المنطق:**

المنطق عنده "قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في حدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات، وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس".

وبمقتضى المنطق الحسي والتجريبي والعقلي والاستقراء وقوانينه المعروفة بقوانين العلية والاطراد في وقوع الحوادث أقام ابن خلدون منهجه.

*** أهمية التاريخ:**

فهو ميدان التفسير والمعرفة وهو علم السير وحفظ المآثر وثقافة المجتمع. وإذا كان ابن خلدون قد أنشأ علم العمران ليعين الباحثين على تمييز الصواب من الخطأ وتفرقة الخطأ عن الباطل في مجال التاريخ، فإن ذلك يعني أن دراسة العمران كانت تعمل على إيجاد معايير الفكر الصحيحة في كل فرع من فروع المعرفة السائدة آنذاك، فعلوم القرآن من تفسير وقراءات وعلوم الحديث وعلم الفقه والفرائض وعلم الكلام والفلسفة كلها كانت قائمة على التاريخ.

فعلم التاريخ كان أعمق العلوم عند العرب، ففي نطاقه تشكلت معظم العلوم كالأدب، اللغة، الفلك، المذاهب، الأحكام الشرعية.....وبقدر ما كان علم التاريخ معنيا بتاريخ العمران، كان معنيا أيضا بعادات المجتمع وتقاليده، وكذا بالحكمة، لذا فإنه يعد تعبير عن عقلية المجتمع وتراثه الثقافي، لهذا كله فقد أكد ابن خلدون عليه حتى يساهم في تكوين معايير الحق والباطل في الثقافة السائدة في عصره.

*** الاستقراء والملاحظة:**

تعكسهما كثرة التشبيهات المادية والأمثلة الحسية التي ضمنها في مقدمته، حيث أجاد في تصوير الواقع، فأعطى تصويرا للواقع ليس مزيفا ولا ملونا فتحدث عن البدو، الحضر، الملك، العصبية، الدين، الدولة.

ويمكن القول أن أبرز معالم المنهج الخلدوني هي، شدة التشوف ودقة الملاحظة، ونزعة البحث والتعميم، وقدرة الاستقراء.

الخاتمـــة:

إن ما يمكن وضعه كخاتمة لهذا العمل، هو أن ابن خلدون قد وضع منهجا علميا، تجاوز به التاريخ الوصفي، واستخدم علما جديدا، هو علم العمران الذي تولــد مــن التاريخ بعدما أعاد ابن خلدون النظر في موضوعه وانتقذ مناهجه.

الهوامش والمراجع:

1 - جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، بيروت دار الكتاب اللبناني، ، د.س، الــصفحة 565 - 573.

2 - 3 - 4 - عبد القادر عرابي: قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون، مجموعــة مــن الباحثين: الفكر الاجتماعي الخلدوني: المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، بيــروت، مركــز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2004، الصفحة 39 - 70.